

التراث التفسيري للقرآن بين الأصالة والمعاصرة

د. عودة عبد عودة عبد الله*

* رئيس قسم أصول الدين / جامعة النجاح الوطنية/ فلسطين.

ملخص:

تعددت مشارب المفسرين، وتنوعت مناهجهم، في طريقة تناولهم لتفسير كتاب الله تعالى. فتركوا تراثاً تفسيرياً من الأهمية بمكان، غير أنه لا يمكن التسليم بكل ما في هذا التراث، لأن كلام المفسرين ليس نصاً منزلاً، ورب العالمين تعبدنا بألفاظ كتابه، ولم يتعبدنا بألفاظ المفسرين.

تناول البحث آلية التعامل مع هذا التراث في نطاق الدعوة إلى الحداثة والمعاصرة، إذ لا بد من النظر في القرآن الكريم بنظرة العصر الذي نعيش فيه، والواقع الذي نحياه، فإن لكل زمن ظروفه الخاصة التي تميزه عن غيره، والقرآن كتاب الله للناس كافة، منذ نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة. مع التأكيد على أن المعاصرة (الحداثة) المنشودة في التفسير، لا تقوم على أساس تجاوز النص القرآني، أو الضرب بجهود المفسرين السابقين عرض الحائط، وإنما هي الالتزام بالنص الأصلي، مع إعادة النظر في الجهد الإنساني المتعلق بتفسير هذا النص بما يتلاءم وظروف العصر.

Abstract:

The approaches of the interpreters of the holy Quran varied and their methodologies diversified in the manner of their dealing with interpreting the Book of Almighty God. So, they left an important interpretation heritage. However, not all what is in this heritage can be taken as it is because the words of the interpreters are not revealed text. We are Allah's worshippers through the expressions of his book and we are not worshippers for the expressions of the interpreters.

This research deals with the mechanism of dealing with this heritage in the scope of the call for modernity and novelty. For we have to look at the Holy Quran with the view of the age and the reality in which we live. Each age has its special circumstances which distinguish it from other age. The Qurán is Allah's Book for all people since it had been revealed to Prophet Mohammad, may Allah's prayer and peace be upon him, till the Judgment Day. We emphasize that modernity (novelty) which is sought in the interpretation is not based on going beyond the Quranic text or rejecting the efforts of the previous interpretations. Rather, it is commitment to the original text and reconsideration of the human effort related to interpreting this text in a way which is appropriate to the circumstances of the age.

تمهيد:

القرآن الكريم مصدر الإسلام الأول، ودستوره الخالد، ولا ريب في أن فهمه بشكل سليم هو غاية كل مسلم، وهو الثمرة العلمية المرجوة من تدبره، بُغية الوصول إلى الالتزام بأحكامه وتوجيهاته إيماناً وعملاً ودعوة.

ويظهر في غير موضع من كتاب الله، أن الله سبحانه وتعالى حثنا على النظر في كتابه، وتدبر معانيه، واستنباط أحكامه وحكمه. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١). والأمر بتدبر القرآن الكريم غير مقتصر على فترة زمنية بعينها.

ولا شك في أن الأمر الذي يساعد على الفهم السوي السليم للقرآن - كما يقول القرضاوي - هو: «حسن تفسيره بما يبين مقاصده ويوضح معانيه، ويكشف اللثام عما فيه من كنوز وأسرار، ويفتح مغاليقه للعقول والقلوب»^(٢).

ومن هنا فإننا لا نستغرب هذا الإقبال المنقطع النظير على تفسير كتاب الله قديماً وحديثاً، حتى توفر لدينا هذا الكم الهائل من التراث التفسيري الذي تزخر به مكتباتنا في هذه الأيام.

ويأتي هذا البحث لبيان النظرة الصائبة والمطلوبة تجاه هذا التراث التفسيري، وبيان الآلية الدقيقة في التعامل معه.

فبين أيدينا الآن تراث تفسيري مرّ في مراحل زمنية متعددة، ولكل مرحلة زمنية ظروفها ومخرجاتها، وكل تفسير من هذه التفاسير له طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره. فكيف نتعامل مع هذه التفاسير؟ هل نتجاوزها باعتبارها تراثاً منقضيّاً كان مناسباً لحقبة تاريخية مضت؟ أم نتمسك بها بطريقة تساويها بالنص القرآني المقدس على منهج: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٣)؟ أم إن هناك خياراً ثالثاً، يمثل المنهج المعتدل في التعامل مع التراث التفسيري، وذلك من خلال العمل على تنقية هذا التراث والبناء عليه؟

ولدينا الآن دعوات للتجديد والمعاصرة في التعامل مع التفسير القرآني. ما طبيعة هذه الدعوات؟ وأين السلبية والإيجابية فيها؟ وما العلاقة بين الأصالة والمعاصرة؟ وأين نحن من كل ذلك؟

هذه أسئلة أساسية جاء هذا البحث لبحث عن إجابات شافية مقنعة لها.

المبحث الأول:

علم التفسير وهداية القرآن:

المطلب الأول - معنى التفسير:

التفسير لغة: الشرح والبيان والكشف. وفُسِّرَ الشيء: وُضِّحَ وأُبانَ. وفُسِّرْتُ الفرس: إذا كشفتَه وعريته لينطلق^(٤). قال الراغب الأصفهاني: «الْفَسْرُ: إظهار المعنى المعقول»^(٥). قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٦). وهو يستعمل لغة في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر.

أما في الاصطلاح، فإن العلماء وضعوا له تعريفات كثيرة، وهذه التعريفات وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، فإنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه. فهي كلها تتفق على أن علم التفسير علم يبحث في بيان معاني القرآن على قدر الطاقة البشرية. فقد عرفه أبو حيان بأنه: «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك»^(٧). وعرفه الزرقاني بأنه: «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالة على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»^(٨).

فعلم التفسير سُمي بهذا الاسم، لما فيه من الكشف والتبيين. واختص بهذا الاسم دون بقية العلوم، مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين، لعلاقته بالألفاظ القرآنية وبيان مراد الله منها، ولجلالة قدره، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد، وقصده إلى تبیین مراد الله من كلامه كأنه هو التفسير وحده دون ما عداه^(٩).

يظهر من المفهوم السابق لعلم التفسير، الذي يشير إلى الكشف والبيان والإظهار، مدى حاجة هذا العلم إلى الجهد البشري لإظهار الدلالات المرادة من الألفاظ. فكلما التفسير تقتضي وجود نص لأن المفسر يعكف على ذلك النص للكشف عن المراد منه. والنص هنا هو آيات القرآن الكريم، ولا يجوز لجيل مخاطب بالنص القرآني أن يتخلى عن مسؤوليته في التفسير مكتفياً بجهد الأجيال السابقة، لأن القرآن متجدد في مخاطبة المكلفين، ومن واجب المخاطب أن ينظر في القرآن، وأن يستنبط منه الحكم الشرعي، والقيم والتوجيهات.

المطلب الثاني - علم التفسير وتجليه هداية القرآن:

علم التفسير له مرتبتان: الأولى: تفاسير ركز أصحابها على تفسير الألفاظ الغريبة، وإعراب الجمل، أو بيان النكت البلاغية، أو الأحكام الفقهية، أو التوسع في القصص ... الخ،

وكان ذلك حسب ما برع به المفسر من علوم. وهذه تشكل كتب التراث التي تحتاج إلى تنقية من الإسرائيليات والروايات الضعيفة والآراء السقيمة.

والثانية: يتجاوز أصحابها هذه الحدود، ويجعلون هدفهم الأعلى تجلية هداية القرآن وتعاليمه، وحكمة الله فيما شرع للناس من أحكام على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب. وهذه المرتبة هي الخليقة باسم التفسير، كما يرى أصحاب المدرسة الإصلاحية في التفسير، وفي مقدمتهم السيد جمال الدين الأفغاني، ومن سار على منهجه الإصلاحي المتميز في الدعوة إلى المعاصرة، والعرض الجديد لتفسير القرآن الكريم من المفسرين، كالإمام محمد عبدة والشيخ محمد رشيد رضا.

ولا يخفى أن أصحاب المدرسة الثانية قد أفادوا كثيراً من منهج المدرسة الأولى في التفسير، وبنوا عليه. فكانت المدرسة الأولى كالأساس والثانية كالبنیان، وتام البناء يطلق على مجموع الاثنتين، ولولا الأولى لما تجلت الثانية.

لقد أدرك أصحاب المدرسة التجديدية بأن المسلمين قد ابتعدوا كل البعد عن هداية القرآن وتوجيهاته في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والتربية، والفكر والتشريع، وجعلوا سننه الاجتماعية في التغيير والبناء، وهذا كله سر الركود الحضاري الذي عاشه المسلمون قرونا طويلة، فشاع التخلف وتعددت مظاهره، فانبرى هؤلاء لتغيير الأوضاع وتجديدها والأخذ بأيدي المسلمين من أجل الخروج بهم من دائرة التخلف.

لذا عاب السيد جمال الدين الأفغاني على المفسرين القدامى اعتناءهم بالمماحكات اللغوية والكلامية، وابتعادهم عن النظر في القرآن من حيث هو صالح لقيادة الحياة واحتواء الحقائق الكونية والاجتماعية والأخلاقية، فيقول رحمه الله في حديثه عن القرآن: «وإني لأسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع... وكيف لا أقول وأأسفاه وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه يهيم إلا بباء البسمة ويغوص، ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية - مع استكمال الأمر على أتم وجوههما - فعم الجهل وتفشى الجمود»^(١٠).

وإنها لثورة على المناهج التفسيرية السلبية، ومنها كتب التفسير الباطني التي حوت كثيراً من الشطحات التي تضر بتقدم الأمة وعلو شأنها، وأيضاً التفسيرات الفلسفية التي حوت علم الكلام والعبارات الجافة التي لا تزيدنا إلا تعقيداً وبعداً عن وسطية المنهج الرباني وعدالته. وهذه المناهج تحجب عن المسلم نور القرآن وهدايته، لأنها تغرقه في مباحث

لفظية وكلامية، ومصطلحات غريبة يصعب عليه فك مغاليقها وحل رموزها، تحول دون الوصول إلى هداية القرآن والانتفاع بتعاليمه. فقال مستنكراً: «انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه دون التخطي إلى محرابه، وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظاً ومناقشات حول أحكام فرضية، واستنتاجات ليست في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير ما لا يحصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة»^(١١).

فالمفسر في نظر رجال هذه المدرسة لا يقوم بدرس تطبيقي لقواعد الإعراب أو نكات البلاغة على نصوص القرآن الكريم، وإنما وظيفته الحقّة أن يقتلع ما رسخ في عقول المسلمين من أفكار خاطئة ومفاهيم مزيفة عن الحقائق الدينية، وأن يحيي تلك التعاليم في نفوس المسلمين، أو بعبارة أخرى يجب أن نبني الشخصية الإسلامية المتكاملة والمجتمع الإسلامي الفاضل المتوازن^(١٢).

انطلاقاً من هذه الدعوة أمكننا أن نفتح طريقاً جديدة للعلاقة مع النص القرآني، شعارها أن (القرآن كتاب هداية)^(١٣). هذه العلاقة تحدّد للتفسير هدفاً مغايراً لما استقر عليه التفسير التقليدي الذي يمثل الاتجاه السلبي، إنه- كما قال الشيخ محمد عبده- : «ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على وجه يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام»^(١٤).

«في هذا كان المنار يشرّع للقول بأنّ الوحي الإلهي لا يمكن ضبط دلالاته نهائياً، وأن التاريخ والمعرفة الإنسانيين في جدلهما مع النص المقدّس يتيحان فهماً أفضل وأشمل لدلالات الحقيقة الكامنة في النص الموحى. إنه المسار الذي سيتحدد تدريجياً حتى نهاية القرن العشرين والذي تصبح معه قدسية النصّ القرآني- في جانب منها- موصولة بالإنسان وأفقه وثقافته؛ أي أن التوصل إلى المعنى يتحقق بالجدل مع طاقات الإنسان، وباعتبار فاعليّة واقعه الفكري والاجتماعي»^(١٥).

هذا هو المنهج التفسيري الجديد الذي رسمه محمد عبده لكل الداعين من بعده للمعاصرة والحداثة في التفسير، نبه إلى ضرورة وجود إدراك أمثل للعلاقة بين عمل المفسر ومقاصد الشريعة. وتكمن أهمية هذا التوجه في اعتبار أن الواقع وتحدياته المختلفة لهما أثر في فهم الحقيقة المودعة في النصّ القرآني، وهذا يوسع الدائرة المرجعية في تعامل المفسر مع النصّ القرآني.

المبحث الثاني:

المفهوم الإيجابي والسلبى للمعاصرة:

◀ المطلب الأول- أبعاد الدعوة للتجديد والمعاصرة في التفسير:

هل الدعوة إلى المعاصرة والتجديد تعني ذلك المنهج الذي ارتضاه بعض المستغربين ممن أصيبوا بصدمة حضارية في بداية القرن الماضي نتيجةً للانبهار بما وصل إليه الغرب من التقدم العلمي والصناعي والعسكري فصاغوا أفكارهم من خلال ذهنية منهزمة أمام ما أنتجته الثقافة الغربية؟ وهل هي تلك النظرة العقلية للنص القرآني مجردة عن الوحي؟ أو النابعة من قناعات فكرية غالباً ما تكون من مخلفات الاستشراق؟ مما يجعل صاحبها يتخبط تخبطاً واضحاً وينحرف انحرفاً شديداً في فهم الإسلام .

لا يخفى أن الذي ينظر في النص القرآني - في حالة كهذه - سيكون مستلباً من قبل الغرب، ويكون هو المعيار في تحديد مفهوم المعاصرة، وهو المسيطر عليه في فهم الحضارة. وهذه هي الحالة التي اصطلح عليها ابن خلدون في نظريته الشهيرة، بـ (تقليد المغلوب للغالب) ، حينما قال: «إن المغلوب مولعٌ أبداً بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه»^(١٦).

ولا شك في أن هذا الاعتقاد بالكمال في حضارة الغالب نجده واضحاً في كثير من أدبيات المستغربين، الذين دائماً ما يبشرون بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا، وبالمناهج الوضعية الغربية في العلوم والآداب والفلسفة دون وعي أو معيار ديني. ولعل في مقدمة هؤلاء طه حسين الذي يقول بكل صراحة: «إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرها، حلوها ومُرّها، وما يُحبّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»^(١٧). وهذه الدعوة من طه حسين تعبر عن واقع الهزيمة النفسية، والانبهار بحضارة الغرب، إلى درجة التواري خجلاً من الثقافة الإسلامية الأصيلة. هذه الثقافة التي لو فتح لها قلبه وروحه، لأدرك تماماً أنها لم تكن في يوم من الأيام عائقاً أمام التقدم والتطور المادي والحضاري، بل على العكس من ذلك تماماً فهي الرائدة في هذا المجال، والداعية إلى الأخذ بزمام العلم والمعرفة.

إذا كانت هذه هي المعاصرة وهذا هو التجديد، فإن ذلك وبلا شك سينتج لنا تفسيراً للقرآن غريباً عن مضمونه، بل لا يمت إلى القرآن بصلة. ولعل مثل هذه النظرة هي التي

أنتجت لنا بعض الاتجاهات المنحرفة في التفسير، فأظهرت لنا كتباً من مثل: الهداية والعرفان لأبي زيد الدمهوري، ورسالة الفتح لعبد الرحمن فراج، ومحاولة لفهم عصري للقرآن لمصطفى محمود.

إنّ الاعتقاد بأن المعاصرة تقوم على أساس تجاوز النص القرآني والتنكر له، أمر لا يمكن أن يكون مقبولاً، لأنّ المعاصرة المنشودة في التعامل مع النص القرآني تعني الالتزام بالنص الأصلي، مع إعادة النظر في الجهد الإنساني المتعلق بتفسير هذا النص، بما يتلاءم وظروف العصر، إذ لا يمكن إنكار الدور الإنساني في فهم النص القرآني، لأنّ الإنسان هو المخاطب به، ويتجدد الخطاب في كل لحظة مع كل مكلف لكي يستقيم أمر التكليف، ولو توقف الخطاب لتوقف التكليف، فلا تكليف إلاّ بخطاب متجدد يخاطب الأجيال المتعاقبة على الدوام لكي يستمر الارتباط قوياً بين النصوص النقلية والأجيال المتلاحقة، وكل جيل مكلف بقراءة النص وتفسيره مع التزام شروط التفسير، ولا نستطيع الادعاء بأنّ جيلاً من الأجيال قد انفرد بحق تفسير القرآن الكريم، ولو صح ذلك لتوقف النص عن العطاء^(١٨). ولو كان لأحد أن يختص بتفسير القرآن الكريم، لكان الشخص الذي أنزل عليه، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكننا نعلم أن الرسول لم يفسّر القرآن كاملاً، حتى يبقى المجال مفتوحاً للنظر والتدبر، فيستمر النص القرآني في النماء والعطاء، من خلال تفسير متجدد يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

◀ المطلب الثاني - تحديد مفهوم المعاصرة والتجديد:

حتى نبين على وجه الدقة المراد من الدعوة إلى المعاصرة والتجديد في التفسير لا بد من بيان هذا المصطلح وتحديده، فالتجديد في معناه اللغوي يتكوّن من ثلاثة معانٍ متصلة، وهي^(١٩):

- إن الشيء المجدّد قد كان في أول أمره موجوداً، وللناس به عهد .
- إن هذا الشيء قد طرأ عليه ما غيرّه وأبلاه وصار قديماً .
- إن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق .

وفي القرآن الكريم جاء ذكر (التجديد) بمعنى الإحياء والبعث والإعادة، وهي معانٍ تتفق مع المعنى اللغوي للتجديد، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢٠)، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾^(٢١). قال الطبري: «منكرين قدرة الله على إعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم وبلائهم»^(٢٢)، وهذا التفسير - كما ترى - منسجمٌ مع المعنى اللغوي للتجديد.

يقول الشيخ القرضاوي: «إن التجديد لشيء ما: هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهى منه، وترميم ما بلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى ... فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء»^(٢٣). أما أبو الأعلى المودودي فيرى أن حقيقة التجديد هي «عبارة عن تطهير الإسلام من أدناس الجاهلية، وجلاء ديباجته حتى يشرق كالشمس ليس دونها غمام»^(٢٤).

فالتجديد الحقيقي هو الذي يعمل على إبراز البدائل، وتقديم الحلول والعلاجات لأمراض الأمة المزمنة، على أساس استيعاب القديم وتقويمه ودراسته وتحليله وإعادة قراءته، وإدراك تحديات الحاضر من أجل استشراف متطلبات المستقبل المنشود. هناك إذن علاقة قائمة بين الواقع وما يفرزه من قضايا ومستجدات، وبين العقل الإنساني وقدرته على صنع الأفكار القادرة على مواجهة تحديات الواقع المعاصر.

هكذا نخلص إلى أن التجديد هو تجديد في الفكر والثقافة والمنهج، وليس المقصود بالتجديد هنا هو التجديد في ثوابت الدين، كما هو ديدن بعض التيارات الفكرية. إن الدين باعتباره حياً إلهياً لا يجوز فيه الزيادة ولا التغيير أو التبديل أو النسخ أو التعطيل بحجة فساد العصر، وما أشبه ذلك مما من شأنه أن يحرف الكلم عن مواضعه^(٢٥).

وهذا ما يؤكد عليه محمد أسد بقوله: «فنحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام كما يظن بعض المسلمين، لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل، أما الذي نحتاج إليه فعلاً، فإنما هو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا وقصر نظرنا، وبكلمة واحدة معالجة مساوئنا نحن، لا المساوئ المزعومة في الإسلام، ولكي نصل إلى إحياء إسلامي، فإننا لا نحتاج إلى أن نبحث عن مبادئ جديدة في السلوك نأتي بها من الخارج، إنما نحتاج فقط إلى أن نرجع إلى تلك المبادئ المهجورة فنطبقها من جديد»^(٢٦).

نستنتج مما سبق أن المعاصرة المنشودة في التفسير القرآني، لا بد أن تستصحب فهم السلف، بعيداً عن إسقاطه أو تقديسه^(٢٧)، وهكذا لا يكون التجديد إلغاء للأصل، وإنما هو عودة إلى الينابيع، وإعادة تنزيلها على الواقع، واستئصال نوابت السوء، ومحاصرة البدع والخرافات والأوهام، وعودة إلى تحريك وتشغيل آليات التغيير الاجتماعي، والتعامل مع السنن الجارية، وهز البرك الراكدة، ومعالجة حالات الاسترخاء والرخاوة التي ألفها الناس، وإعادة فحصها واختبارها وتصويبها. «إن التجديد في الحقيقة هو نوع من التغيير المنهجي المنضبط بقيم الكتاب والسنة»^(٢٨).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن التجديد والمعاصرة إنما يتعلقان بالحاضر فقط، في حين يكون للمستقبل تجديده الذي يصنعه أبناؤه، أما فهم السلف، فهو تجديد وإبداع

في الماضي، وهو نقطة الانطلاق، لتجديد الحاضر، فالتجديد للحاضر يبدأ في حين توقف الأسلاف، وتجديد المستقبل يبدأ من حيث أنهينا العمل، فوعي المسلمين متصل ومتواصل ومتراكم وهذا جزء من الوراثة الصالحة^(٢٩).

◀ المطلب الثالث - دور الإمام محمد عبده في الدعوة إلى التجديد والمعاصرة:

بعد تحديد مفهوم الدعوة للمعاصرة والتجديد وبيان أبعادها، لا بد أن ننظر إلى الموضوع من خلال رمز من رموز هذه الدعوة في مجال التفسير^(٣٠) وهو الإمام محمد عبده رحمه الله.

لم يكن التجديد الذي نادى به الإمام محمد عبده هدماً للماضي، ولا قضاء على التراث، بل كان جمعاً بين الأصالة والمعاصرة، وكان توظيفاً للتراث في خدمة العصر، وإخضاع ظواهر العصر الحديثة إلى أحكام الشريعة الغراء. وإيماناً من الشيخ محمد عبده بأن التجديد لا ينبع إلا من عقيدة راسخة تؤمن أن فيه صلاحاً للأمة، ولّى وجهه شطر التجديد الديني أولاً وتمثّل هذا في اتجاهه إلى إصلاح الأزهر الشريف والعناية بالتعليم الديني؛ لأنه أساس بناء الأمة، وفي ضوء التوجيهات الدينية يمكن صياغة شخصية الأمة.

وكانت غيرته على الإسلام تدفعه إلى الدفاع عنه، وبيان أنه دين يدعو إلى النظر والاعتبار، وكشف ما في الكون من أسرار. وكثيراً ما ركز في كتاباته على دعوة الإسلام إلى العلم، وبيان أنه لا توجد خصومة بين الدين والعلم الحديث، بل بالعكس فإن الإسلام يدعو إلى التجديد، وإلى إعداد القوة بكل أشكالها، وبما يتناسب مع كل عصر وزمان^(٣١).

بنى الإمام محمد عبده دعوته إلى التجديد على الأسس الآتية^(٣٢):

- التخلي عن رذائل الجهل والتقليد والخرافات.
- التحلي بالعلم واحترام العقل والتفكير.
- الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وأنه لا خصومة بين الدين والعلم والتجديد.

إن دعوة الإمام محمد عبده إلى التجديد والمعاصرة والإصلاح، تقوم على الجمع بين الأصالة والمعاصرة، لأنها تعتمد على أسس الإسلام وتعاليمه، حتى لا يكون هناك إفراط في مجال التجديد وتحكيم العقل فيحدث انفلات من تعاليم الدين. وفي الوقت نفسه لا ينبغي أن يراوح الناس مكانهم، ويظلون كما هم دون تقدم أو تطوير أو تجديد. والدين بنصوصه هو الحكم في كل الأحوال، بحيث لا يحدث شطط أو إفراط أو تفريط.

ومع ما للدعوة إلى التجديد من إيجابيات^(٣٣)، فإن فيها بعض السلبيات التي قد يقع فيها بعض العلماء والمفكرين والمجددين، أمثال الشيخ محمد عبده وغيره، لأنهم بشر. ومع

احترامنا وتقديرنا للإمام محمد عبده، وما أسداه للفكر الإسلامي من أيادٍ، فلا يمنعنا هذا أن نعترض على بعض الشطحات التي وقع فيها، لأن كل إنسان يؤخذ من رأيه ويُردّ إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ولعل كثيراً مما وقع به محمد عبده من شطحات يعود لإعطاء العقل حرية واسعة في فهم النص، ولو كان ذلك على حساب صحيح المأثور، فلجأ في بعض الأحيان إلى تأويلات غريبة للنص القرآني، كان الأجدر به أن ينزه قلمه عنها. وسنكتفي هنا بذكر نموذجين يتعلق أحدهما بما جاء عنه من تأويلات غريبة في قصة آدم عند حديثه عن الملائكة، والآخر تأويله لحادثة الفيل.

♦ تأويلاته في قصة آدم:

يقول: «وذهب بعض المفسرين^(٣٤) مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال، من إنماء نبات وخلقة حيوان، وحفظ إنسان، وغير ذلك، فيه إيحاء إلى الخاصة، بما هو أدق من ظاهر العبارة»^(٣٥)، ثم يقول بعد ذلك في ثنايا تفسيره:

«إن إخبار الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض، هو عبارة عن تهيئة الأرض ... لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ... وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض ... هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك ... وتعليم آدم الأسماء كلها، بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه في استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم في الجواب، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوامل محدوداً لا يتعدى وظيفته. وسجود الملائكة لآدم، عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له، ينتفع بها في ترقية الكون، بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك. وإيحاء إبليس واستكباره عن السجود، تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ... ويصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم ... وبآدم نوع الإنسان ... وبالشجرة معنى الشر والمخالفة ... وبسكنى الجنة والهبوط منها أمر التكوين»^(٣٦).

لقد أراد الإمام أن يقرب البعيدين عن الدين، ولكنه رحمه الله نسي أنه بعمله هذا يقرب المتدينين من غيرهم، كما قال الشيخ مصطفى صبري^(٣٧). لقد قدم الإمام تنازلات كثيرة حينما فتح باب التأويل، هذه التنازلات رأينا لها أسوأ الأثر فيما بعد^(٣٨)، وبخاصة عند هؤلاء الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم. «إن هذه الآيات التي أولها الإمام لا تحتتمل هذا التأويل. وكما هي قطعية في ثبوتها فهي قطعية في دلالتها كذلك. نعم، إن قطعية الدلالة وإن لم تُستفد من اللفظ نفسه، لكنها هنا تستفاد من أمر آخر، وهو ذكرها في مواطن كثيرة. فلقد ذكرت هذه القصة في القرآن مرات كثيرة، ومثلها لفظ الملائكة. وقول الإمام

بأن مجموع ما ورد في الملائكة فيه إيماء للخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، لا نرضاه منه ولا نسلمه له، ذلك أن عبارات القرآن غاية في الوضوح، بحيث يكون الخروج على ظاهر معناها ذهاباً إلى الرمزية والإشارات الخفية التي يستنكرها أمثال الإمام. وإذا كانت أخبار الملائكة في القرآن يمكن أن يفهم منها ما هو أدق من عبارتها، فجائز أن يقال ذلك كذلك في آيات البعث ومعجزات الأنبياء، وغير ذلك من الآيات»^(٣٩).

♦ تأويله لحادثة الفيل:

يقول في تفسيره لسورة الفيل: «وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة. قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب. وقال يعقوب بن عتبة: فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام^(٤٠). وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الحبشي، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء. هذا ما اتفقت عليه الروايات، ويصح الاعتقاد به. وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بوساطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها. . ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين، على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها. . فله جند من كل شيء. وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد. وليس في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكته قومه، قبل أن يدخل مكة. وهي نعمة من الله غمر بها أهل حرمه - على وثنيته - حفظاً لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه، ولا ذنب اقترفه. هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل، إن صحت روايته. ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً - ويهلك، بحيوان صغير لا

يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر. لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر»^(٤١).

لقد كان تأويل الأستاذ بدءاً من التأويل، لما فيه من الخروج الواضح عن ظاهر الألفاظ، ومغالاته في العقل أكثر من اللازم، لدرجة أنه جعله حكماً على الوحي كما في هذه الحالة. وهذا يدل على مدى تأثر الأستاذ بالحضارة الغربية التي لا تؤمن إلا بما هو في دائرة الحس، وتنكر الأمور الغيبية.

يقول الدكتور فضل عباس: «والحق أن مذهب الأستاذ ومسلكه في تضيق نطاق الخوارق، وتأثره بالفلسفات المادية، وافتتانه بمعطيات الحضارة الغربية، التي تفسر كل شيء تفسيراً مادياً حتى التاريخ، كل ذلك واضح من خلال مواضع كثيرة في تفسيره، وبخاصة تفسير هذه السورة. إن الميكروبات حينما تظهر، لا تفرق بين عربي وحشي، فإذا ابتلي بها قوم دون آخرين فذلك لا شك شأن الهي، وإن لم تدركه عقولنا، فحري بنا أن نبقي مثل هذه الشؤون الإلهية الخاصة كما جاء بها الشرع، وألا نحاول أن نخضعها للقوانين المادية؛ ذلك لأن هذا التفسير إن كان يخدمنا من جهة، فإنه أكثر هدماً من جهات أخرى»^(٤٢).

ومع مخالفتنا الشديدة للإمام، إلا أنه لا يجوز لنا أن نقدح في شخصه أو أن نطعن في دينه، فهو مجدد ومصلح نعتز به، واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، والحق أحق أن يتبع. ومن أراد أن يقوم آراء الآخرين، فلا يجوز له أن يعتدي على حرمة دينهم ودائرة اعتقادهم، وهذا للأسف ما انزلق إليه الدكتور فهد الرومي، الذي جاوز حدود المنطق والعقل حين قال: «ماذا يريد الشيخ محمد عبده بهذا التأويل وهذا المفهوم؟ هل يريد أن يؤكد لنا مرة أخرى تكذيبه للقرآن الكريم كما كذب قصصه بحملها على التمثيل لا على الحقيقة والواقع»^(٤٣).

لقد أردنا من وراء هذين النموذجين لرأي الشيخ، والرد عليه أن نبين أن الدعوة إلى التجديد والمعاصرة في التفسير، لا بد لها من ضوابط، حتى لا يحدث شطط في التفكير. والناظر إلى شطحات المفسرين قديماً وحديثاً يجد أن معظمها ناتج عن الخروج عن هذه الضوابط. وأول المعالم في هذا المنهج هو: الجمع بين الرواية والدراية، والجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول، والتأليف بين تراث السلف ومعارف الخلف. فالرأي العقلي مهما سما أمره، وعلا قدره هو رأي بشري قابل للخطأ، وأما الحديث النبوي الذي ثبتت صحته، فلا يصح العدول عنه لرأي عقلي يستبعد حدوث ما يذكره الحديث. وكما يقول سيد قطب رحمه الله: «العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن. ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى»^(٤٤).

المبحث الثالث:

التراث التفسيري وموقفنا منه:

بناءً على الفهم السابق للأصالة والمعاصرة، ودور القرآن في الهداية وتأصيلنا لهذه الفكرة، لا بد أن نبين موقفنا من هذا التراث التفسيري الهائل الذي ورثناه عن السلف، والطريقة التي نتعامل فيها معه.

يُلاحظ للوهلة الأولى، أن المفسرين تعددت مشاربهم، وتنوّعت مناهجهم، في طريقة تناولهم لتفسير كتاب الله تعالى. فمنهم من غلب عليه جانب التفسير بالأثر كالطبري وابن كثير والسيوطي، أو جانب التفسير البياني كالزمخشري وأبو السعود، أو التفسير الفقهي كالجصاص وابن العربي المالكي والقرطبي، ونحو ذلك. فغني عن البيان، أن أكثر التفاسير القديمة، صرّفت عنايتها إلى ناحية معينة: كالنظر في أساليب القرآن، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة، أو التوسّع في بيان وجوه الإعراب ومدلولات الألفاظ واستعمالاتها، أو تتبع القصص من غير تفريق ولا تنقيح، أو استنباط الأحكام الفقهية، أو القول في أصول العقائد ومقارنة أهل الزيغ والضلال، ونحو ذلك من الاتجاهات الخاصة التي يُعدّ التوغّل فيها، والانصراف إليها على حساب المقصد العام للقرآن مدعاة للخروج عن المقصود من الكتاب الإلهي، وذلك لأن القرآن الكريم هو كتاب هداية بالدرجة الأولى، وليس كتاب لغة أو فلسفة أو فيزياء. علماً بأنه لا يجوز التقليل من أهمية هذه الأمور في إبراز إعجاز القرآن الكريم وتحقيق الهداية.

ولا شك في أن هذا التراث الذي تركه المفسرون يُعدّ ثروة علمية، لا يمكن الاستغناء عنها، ولا بدّ لكل مطلع على تفسير كتاب الله، أن ينظر فيها ويستخرج كنوزها، لأن ذلك مُعينٌ على حُسن الفهم، وسعة الإدراك، وبُعد النظر.

ولكن على الرغم من حاجتنا الماسّة لكل هذه التفاسير، فإن الأمر يتطلب وقفةً لمراجعة وتهذيب الكثير منها، لما داخلها من غثّ، ولما شابها من كدر^(٤٥). فحقيقٌ على مفسري كتاب الله، الذي تعهّد الله بحفظه، أن يتجاوبوا مع هذه الحقيقة، فيجنّبوا تفاسيرهم كلّ ما فيها من ريبة، ويطرحوا عنها كلّ ما شوّه جمالها وأنقص بهاءها.

والدعوة إلى تنقية كتب التفسير ليست دعوة إلى بدعة أو ضلالة، لأن تهذيب كتب التفسير بتنقيتها من الإسرائيليات، مطلبٌ مهم من مطالب التعامل مع التراث، وذلك «لأننا بحاجة إلى أن يكون التعامل مع القرآن، دونما هذا العازل الرديء، الذي تدخّل بين القارئ وبين النص المقدس ... وهو العازل المتمثل في الإسرائيليات»^(٤٦).

يُضاف إلى ذلك، أن التفاسير دخل فيها كثيرٌ من القصص التي كانت تُعدُّ لوناً من ألوان الوعظ، ولكن هذه القصص بعد مرور وقت من الزمن، تحوّلت إلى حقائق ثابتة في نظر بعض الناس، مما يؤكّد الجهد الواجب بذله في تحقيق هذه الكتابات.

ولعلّ إدراك ابن تيمية لهذه الحقيقة هو ما جعله يرسم لنفسه منهجاً خاصاً في التفسير، يقوم على أساس الدراسة النقدية لكتب التفسير، والتمييز في المنقول والمعقول بين الحق والباطل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل، فكان يقول: «وربما اطلعتُ على الآية الواحدة في نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله تعالى الفهم»^(٤٧). ويقول: «إنَّ الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين. والعلم إما نقلٌ مصدّق عن معصوم، وإما قولٌ عليه دليل معلوم، وما سوى ذلك إما مزيفٌ مردود، وإما موقوف لا يُعلم أنه بهرج ولا منقود»^(٤٨).

فقد تسرّب إلى تراثنا التفسيري كثير من الروايات التي شوّهت وجهه وكدّرت صفاءه، بما تحمل من خرافات وأباطيل راجت بضاعتها بين اليهود والنصارى، ثم أرادوا ترويجها بين المسلمين. وكأنَّ اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوّضها عن هزيمتها، وذلك هو الغزو الثقافي، فدسّت إسرائيليّاتها المنكرة، في غفلة من الزمن، فلم تمض بُرهة حتى غصّت بها كتب المسلمين.

والأمثلة على الروايات السقيمة التي حُشيت بها كتب التفسير كثيرة، لا يكاد يخلو منها تفسير من هذه التفاسير. فمن غريب هذه الإسرائيليات وعجيبها، ما نقرأه في كثير من كتب التفسير عند النظر في بعض آيات سورة «ص» حول قصة داود وسليمان عليهما السلام، مما يترفع القلم عن تدوينه^(٤٩).

وهناك روايات أخرى ضعيفة كان الأجدر أن يُنزّه عنها كتاب الله، ولا بدّ أن تُطرح من كتب التفسير. فهناك رواية لأحمد في مسنده نقلها ابن كثير في تفسيره، جاء فيها عن زرّ: قال لي أبيّ بن كعب: «كم تقرأون سورة الأحزاب؟ فقلت: بضعا وسبعين آية. قال: لقد قرأتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البقرة أو أكثر منها، وإن فيها آية الرجم»^(٥٠). قال الغزالي معلقاً على هذه الرواية: «وهذا كلامٌ سقيم، فإن الله لا ينزل وحياً يملأ أربعين صفحة، ثم ينسخه أو يحذف منه أربعاً وثلاثين ويستبقى ست صفحات وحسب»^(٥١).

ومن جانب آخر، فعلى الرغم من تقديرنا لهذه التفاسير، وعظيم احترامنا لجهود علمائنا فيها، فإنه يجب علينا ألا نتخذها قوالب جاهزة جامدة، وبتناسي بذلك روح العصر الذي نعيش فيه، فإن الله سبحانه وتعالى تعبّدنا بألفاظ كتابه الكريم، ولم يتعبّدنا بألفاظ

المفسرين وأقوالهم. لذلك فإنه لا بد لنا أن نتعلم فن الجمع بين الأصالة والمعاصرة، لأنهما أمران متلازمان «فإن من ينشد الأصالة بدون المعاصرة، كمن ينشد المعاصرة بدون الأصالة، الأول مقلد والثاني تابع، بل كلاهما تابع ومقلد»^(٥٢).

فمن آيات إعجاز القرآن وخلوده، أننا نستمد منه في كل عصر ما يمكننا من مواجهة الآراء المستحدثة والقضايا المستجدة، فالقرآن كتاب كل زمان وكل مكان. لذلك فإنه ينبغي الوقوف والنظر فيما كتبه السابقون، وإمعان النظر وإعمال العقل فيه، للمساعدة في استنباط ما يتناسب مع روح الشريعة، ويتفق مع مصلحة المجتمع المعاصر؛ لأنه كتاب حي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

وهذه حقيقة أقرها الإمام الرازي من قبل، حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(٥٣): «أثبت في أصول الفقه، أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها. ولولا ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في التفسير مردودة باطلة، وذلك لا يقوله إلا مقلدٌ خلف»^(٥٤).

وممن دان بهذا الرأي، ودعا إلى تجديد التفسير القرآني، وإعادة النظر في مقاصده البعيدة السامية- كما بينا سابقاً- الشيخ محمد عبده رائد الإصلاح والتجديد في علم التفسير، الذي يقول: «قد يدعي بعض أهل العصر، أنه لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن، لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منها، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها، وهكذا زعم بعضهم. ولو صحَّ هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى ... خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل، ولم يوجَّه الخطاب لهم لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(٥٥) فهل يُعقل أن يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا، ونكتفي بالنظر في قول ناظرٍ فيه، ولم يأتنا وحياً من الله بوجوب اتِّباعه لا جملة ولا تفصيلاً؟ كلا، إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته»^(٥٦).

ولكن على من يدعي التجديد، أن يدرك المنهج الأمثل في تفسير القرآن، والذي يقوم على أصولٍ راسخة، وقواعد شامخة، تتمثل في خطوات معلومة، ومعالم مرسومة، وضوابط بيّنة يجب مراعاتها والالتزام بها، حتى تتضح للمفسر الغاية، وتستقيم له الطريق.

فلا بدّ للمفسّر أن يجمع بين الرواية والدراية، فيفسّر القرآن بالقرآن، وبصحيح السنّة، وينظر في أقوال الصحابة والتابعين، ولا ينسى مراعاة السياق وأسباب النزول، وعليه قبل كلّ ذلك أن يكون عالماً باللغة التي نزل بها القرآن. وأيّ تهاون في هذه الضوابط قد ينشأ عنه انحراف في التفسير، ودخول في متاهات غير محمودة العواقب. والأمثلة على هذه الانحرافات في التفسير كثيرة، وما تفسير صاحب رسالة الفتح لمعنى البقرة في قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾^(٥٧) على أنها الطير، بحجة أن البقر لا يأكل بعضه بعضاً، أما الطير فذلك فيه ممكن. وما تفسيره لبقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها على أنها الدجاجة، إلا نموذج واقعي لهذا الانحراف. وإلا في لغة من استخدمت البقرة بمعنى الدجاجة؟ وإذا كان هذا معنى البقرة فما معنى الدجاجة نفسها؟

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، إن التراث التفسيري الذي بين أيدينا، لم يكن بمنأى عن الصراعات الفكرية التي كانت تدور في عصر كلّ مفسّر. وكثيراً ما كان هذا المفسّر أو ذاك يمثل اتجاهًا معيناً، فهو بالتالي كان ناصراً ومؤيداً لفكرته واتجاهه، ونرى أن ذلك انعكس بشكل واضح وملحوس على تفسيره، حتى دخلت إلى التفسير بعض التأويلات الفاسدة الباطلة التي ما جاءت إلا لتساند فكرة ما. حتى قال بعض الشيعة في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٥٨) هما أبو بكر وعمر. كما اعتمد الجبرية على مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥٩) في اعتبار الإنسان مسيراً لا إرادة له ولا اختيار، وأنه كريشة في مهبّ الريح تحرّكها الأقدار كيف تشاء. وحتى الزمخشري صاحب الفكر المعتزلي، لم يخلّ تفسيره من بعض الشطحات الاعتزالية. وهناك تفسيرات أخرى غريبة للقاديانية والبهائية وغيرهما.

لذلك فإنه لا بدّ لنا من أن نعي هذه الحقيقة المهمة، حتى ندرك مرامي كلّ مفسّر عندما نتعامل مع تفسيره، فلا نتعامل مع مفسّر دون أن نحيط ولو لماماً بطبيعة الصراعات الفكرية التي عايشها، حتى نجعل من عقولنا ميزاناً نقوّم به ما يصدر عنه.

نستنتج مما سبق، أن التراث التفسيري الذي تركه لنا السلف، من الأهمية بمكان، بحيث لا يستغني عنه طالب علم، أو راغب في الغوص إلى معاني القرآن الكريم. إلا أن ذلك لا يبرر لنا الجمود على هذا التراث، بل لا بدّ من تحقيقه وتنقيته من الشوائب والانحرافات. ثم لا بدّ لنا من الإبداع والتجديد، وذلك بأن ننظر في القرآن بنظرة العصر الذي نعيش فيه، والواقع الذي نحياه، فإن لكلّ زمن ظروفه الخاصة، التي تميزه عن غيره، والقرآن كتاب الله للناس كافة، منذ نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة.

خاتمة:

يجدر بنا في نهاية المطاف أن نسجل أهم ما توصل إليه البحث وهو:

١. يُعدُّ التراث التفسيري للقرآن ثروة علمية من الأهمية بمكان، ولا يجوز لناظر في تفسير القرآن أن يتجاوزَه.

٢. على الرغم من أهمية هذا التراث إلا أنه لا يؤخذ بكل ما فيه، فإن فيه الغث والسمين، ولا يجوز لنا أن نأخذ كلام المفسرين كقوالب جامدة، فإن الله تعبدنا بألفاظ كتابه ولم يتعبدنا بألفاظ المفسرين وأقوالهم.

٣. لا بد من توظيف هذا التراث التفسيري في خدمة التفسير المعاصر، من خلال إتقان فن الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٤. المعاصرة المنشودة في التفسير، لا تقوم على أساس تجاوز النص القرآني، أو الضرب بجهود المفسرين السابقين عرض الحائط، وإنما هي الالتزام بالنص الأصلي، مع إعادة النظر في الجهد الإنساني المتعلق بتفسير هذا النص، بما يتلاءم وظروف العصر.

٥. لا يمكن الادعاء بأنَّ جيلاً من الأجيال قد انفرد بحق تفسير القرآن الكريم في أي مرحلة من الزمن، ولو صح ذلك لتوقف النص عن العطاء. فوعي المسلمين متصل ومتواصل ومتراكم وهذا جزء من الوراثة الصالحة.

الهوامش:

١. سورة محمد: الآية ٢٤.
٢. القرضاوي، يوسف: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، (بيروت: دار الشروق، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٢١٧.
٣. سورة المائدة: الآية ١٠٤.
٤. انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ١)، ج ٥، ص ٥٥. الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١٩٨٠م)، ج ١، ص ٣٣٤.
٥. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، (دمشق: دار القلم، ط ٢، ١٩٩٧م)، ص ٦٣٦.
٦. الفرقان: ٣٣.
٧. أبو حيان، عبد الله بن محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي: البحر المحيط، (بيروت: دار صادر، ط ١)، ج ١، ص ٢٤.
٨. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، (بيروت: دار المعرفة، ط ١)، ج ٢، ص ٩.
٩. انظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠.
١٠. المخزومي، محمد: خاطرات جمال الدين الأفغاني، ط ١، بيروت، ١٩٣١م، ص ٩٨.
١١. المرجع السابق، ص ٩٩.
١٢. انظر: دراجي، محمد: «المقال التفسيري الهدائي من جمال الدين الأفغاني إلى إبراهيم أبي اليقظان»، مجلة الموافقات، الجزائر، مجلد ٥، عدد ٥، ١٩٩٦م، ص ٤.
١٣. هذه هي مقولة الإمام محمد عبدة التي رفعها ودافع عنها وعمل من أجلها وأقام منهجه في التفسير عليها. انظر: تفسير المنار، مطبعة المنار ١٣٦٤هـ، ج ١، ص ١٨، ٢٤.
١٤. المرجع السابق، ص ٢٤.
١٥. النيفر، احميدة: مقال على النت على موقع الملتقى الفكري للإبداع بعنوان «محمد عبده

في ذكرى وفاته: تحديات الحاضر - أسئلة الماضي (المؤسسة والنص)».

<http://www.almultaka.net/PrintNews.php?id=236&cat=19>

١٦. ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، (بيروت: دار المعرفة، ط ١)، ص ٢.
١٧. حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر، (القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع)، ج ٢، ص ٢٨.

١٨. انظر: النبهان، فاروق: مقال على النت على موقع الشيخ عبد الهادي بدلة بعنوان: «العلاقة بين التفسير والتجديد في الفكر الإسلامي» انظر:

<http://www.badleh.com/index.jsp?id=23&aid=15>

١٩. انظر معنى التجديد في اللغة في: ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٢٢. الجوهري، إسماعيل: الصحاح في اللغة، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج ١، ص ٨٣.

٢٠. سورة ق: الآية ١٥.

٢١. سورة السجدة: الآية ١٠.

٢٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر)، ج ١٣، ص ٩١.

٢٣. القرضاوي، يوسف: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، (الدار البيضاء: دار المعرفة)، ص: ٥٢.

٢٤. المودودي، أبو الأعلى: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧٥م)، ص: ١٢.

٢٥. انظر: حمدوشي، الحسن: «التجديد الفكري: قراءة في المفهوم» مجلة الكلمة، العدد ٥٠، السنة ١٣، ٢٠٠٦م، ص ١٤.

٢٦. أسد، محمد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٣م)، ص ١١٣.

٢٧. يقول عمر عبيد حسنة: «دراسة حركات التجديد والمجددين الذين حاولوا الانعتاق من أسر الفهوم المسبقة التي كرسست الواقع، في محاولة للانطلاق المنهجي في بناء معرفة إسلامية، تستمد من قيم الوحي، وتستصحب فهم السلف، بعيداً عن القفز فوقها

أو إسقاطها أو نقل القدسية لها، والاكتفاء بها». حسنة، عمر عبيد: الشاكلة الثقافية (مساهمة في إعادة البناء)، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م)، ص ١١٦-١١٧.

٢٨. انظر: حسنة، عمر عبيد: رؤية في منهجية التغيير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤م)، ص ٣٦-٣٧.

٢٩. انظر: المؤمن، علي: الإسلام والتجديد رؤى الفكر الإسلامي المعاصر، (بيروت: دار الروضة، ط ١، ٢٠٠٠م)، ص ٢٧.

٣٠. تجدر الإشارة إلى أن الحديث عن الإمام محمد عبده كرمز من رموز الإصلاح والتجديد، لا يقلل من أهمية غيره من العلماء والمفسرين الذين جاءوا من بعده، كالشيخ محمد رشيد رضا وسيد قطب والمودودي والشعراوي وابن عاشور وغيرهم، وإنما تخصيصه بالذكر كونه شكل مدرسة في التفسير أصبحت منهلاً لجميع المدارس التفسيرية التي جاءت من بعده.

٣١. انظر: عباس، فضل حسن: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، (الأردن: دار النفائس، ط ١، ٢٠٠٧م)، ١٨-٢٠. هاشم، أحمد عمر: مقال على النت على موقع Islam On Line بعنوان: «الإمام محمد عبده مجدداً» ص ١-٢. انظر: http://www.islamonline.net/arabic/In_Depth/MohamadAbdo/Articles/05.shtml

٣٢. انظر: المرجع السابق، ص ٣.

٣٣. من أبرز إيجابيات مدرسة محمد عبدة في التفسير: يسر العبارة وسهولة الأسلوب، وعدم الخوض في مبهمات القرآن، ومحاربة الاسرائيليات والأحاديث الضعيفة والموضوعة، والحرص على بيان هداية القرآن الكريم، ودحض الشبهات، والدفاع عن الاسلام. انظر: عباس، فضل: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، ص ٣٢-٤٦.

٣٤. لا أدري من هؤلاء البعض، ويا ليتته ذكر لنا بعض أسمائهم، اللهم إلا إذا كان يعني نفسه فقط.

٣٥. رضا: تفسير المنار، ج ١، ٢٨١.

٣٦. المرجع السابق.

٣٧. صبري، مصطفى: موقف العقل والعلم والدين، (المكتبة الإسلامية، ١٣٦٩هـ)، ج ١، ص ١٣٣.

٣٨. لا يشك أحد بأن للشيخ محمد عبده ومدرسته أعظم الأثر في تقريب فهم القرآن من القلوب، وتنقية التفسير من الشوائب، والابتعاد به عن جو الخرافات والإسرائيليات والتعصب المذهبي والفقهى والعقدي، وإلباسه ثوباً جديداً يتناسب مع مدركات الناس في العصر الحديث. ولكن مع تلك الحسنات، فقد كان لهذه المدرسة شطحات، خرجت بالنص القرآني عن معناه الظاهر، إلى تأويلات بعيدة وتفسيرات غريبة، كالمثال الذي ذكرناه سابقاً. وهذا يجعلنا نرجح أن لمدرسة محمد عبده أثراً في ما رأيناه من انحراف في التفسير فيما بعد. وهذا الانحراف، وإن لم يكن هدفاً عند هذه المدرسة، وإن كان كثير من رجالها قد حاربوه حرباً لا هوادة فيها، إلا أن هؤلاء المنحرفين كانوا، أقل ما في الأمر، يتسترون ببعض آراء تلك المدرسة، والحق أن مدرسة الأستاذ الإمام مع ما لها من فضل، إلا أنها قد شجعت كثيرين ممن نشك في دوافعهم وأهدافهم على أن يذهبوا هذه المذاهب الشاذة في تفسير القرآن. وليس معنى هذا أن انحراف هؤلاء، كان نتيجة لبعض آراء تلك المدرسة التي صدعت بها، فإن كثيرين منهم قد تأثروا بعوامل ودوافع لا تقرها تلك المدرسة، وإنما هذه الدوافع كانت أثراً مباشراً لذلك اللبن الآسن، الذي أرضعه هؤلاء في حضانة الجامعات الأوروبية، أو نتيجة لشهوة الشهرة التي سيطرت عليهم. عباس، فضل حسن: التفسير أساسياته واتجاهاته، (عمان: مكتبة دنديس، ط ١، ٢٠٠٥م)، ص ٦٧٣ - ٦٧٤.

٣٩. عباس، فضل: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، ج ١، ص ٧٢.

٤٠. «ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصاً في أن الجيش أصيب بالجدري. فهي لا تزيد على أن تقول: إن الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة. ولم ترد في أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض... ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كان الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله». قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤١٢.

٤١. عبده، محمد: تفسير جزء عم، (القاهرة: مطبعة مصر، ط ٣، ١٣٤١هـ)، ص ١٥٦.

٤٢. عباس، فضل: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، ج ١، ص ٨٥.

٤٣. الرومي، فهد عبد الرحمن: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٧م)، ج ٢، ص ٦٢٩.

٤٤. قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤١٢.
٤٥. لا نغفل هنا الجهود الطيبة المبذولة في تنقية التفسير من الدخيل، من قبل الكثير من الدارسين، خاصة في رسائل الماجستير والدكتوراة في كثير من الجامعات والمؤسسات التعليمية المختلفة، ولقسم التفسير وعلوم القرآن في الأزهر جهد مميز في ذلك.
٤٦. عاشور، محمد: «كيف نتعامل مع التراث»، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١١٨.
٤٧. ابن تيمية، عبد الحليم: مقدمة في أصول التفسير، (الكويت: ١٩٧١م)، ص ١٠.
٤٨. المرجع السابق، ص ٣٣ - ٣٤.
٤٩. للوقوف على هذه الروايات، انظر: تفسير الآيات ٢١ - ٢٥ والآية ٣٤ من سورة ص، عند الطبري والسيوطي وابن كثير وغيرهم.
٥٠. أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق: حسين سليم أسد، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج ٥، ص ١١٣. قال علي بن أبي بكر الهيثمي: «في إسناده عاصم بن أبي النجود وقد ضَعُف». انظر: موارد الظمان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٤٣٥.
٥١. الغزالي، محمد: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، (القاهرة/بيروت: دار الشروق، ط ٣، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٢٨.
٥٢. الجابري، محمد عابد: التراث والحداثة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩١م)، ص ٦٠.
٥٣. سورة النساء: الآية ٣.
٥٤. الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج ٥، ص ٧٦.
٥٥. سورة الحج: الآية ١.
٥٦. رضا: تفسير المنار، ج ١، ص ٣٨.
٥٧. سورة يوسف: الآية ٤٣.
٥٨. سورة المسد: الآية ١.
٥٩. سورة الصافات: الآية ٩٦.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، عبد الحليم: مقدمة في أصول التفسير، (الكويت: ١٩٧١م).
٢. ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، (بيروت: دار المعرفة، ط ١).
٣. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ١).
٤. أبو حيان، عبد الله بن محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي: البحر المحيط، (بيروت: دار صادر، ط ١).
٥. أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق: حسين سليم أسد، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
٦. أسد، محمد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، (بيروت: دار العلم، ط ٤، ١٩٨٣م).
٧. الجابري، محمد عابد: التراث والحداثة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩١م).
٨. الجوهري، إسماعيل: الصحاح في اللغة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م).
٩. حسنة، عمر عبيد: رؤية في منهجية التغيير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤م).
١٠. —: الشاكلة الثقافية (مساهمة في إعادة البناء)، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م).
١١. حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر، (القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع).
١٢. حمدوشي، الحسن: «التجديد الفكري: قراءة في المفهوم» مجلة الكلمة، العدد ٥٠، السنة ١٣، ٢٠٠٦م.
١٣. دراجي، محمد: «المقال التفسيري الهوائي من جمال الدين الأفغاني إلى إبراهيم أبي اليقظان»، مجلة الموافقات، الجزائر، مجلد ٥، عدد ٥، ١٩٩٦م.
١٤. الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط ١،

١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٥. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، (دمشق: دار القلم، ط ٢، ١٩٩٧م).

١٦. رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، (مطبعة المنار، ١٣٦٤هـ).

١٧. الرومي، فهد عبد الرحمن: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٧م).

١٨. الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، ١٩٨٠م).

١٩. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، (بيروت: دار المعرفة، ط ١).

٢٠. صبري، مصطفى: موقف العقل والعلم والدين، (المكتبة الإسلامية، ١٣٦٩هـ).

٢١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر).

٢٢. عاشور، محمد: «كيف نتعامل مع التراث»، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٢٣. عباس، فضل حسن: التفسير أساسياته واتجاهاته، (عمان: مكتبة دنديس، ط ١، ٢٠٠٥م).

٢٤. —: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، (الأردن: دار النفائس، ط ١، ٢٠٠٧م).

٢٥. عبده، محمد: تفسير جزء عم، (القاهرة: مطبعة مصر، ط ٣، ١٣٤١هـ).

٢٦. الغزالي، محمد: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، (القاهرة/بيروت: دار الشروق، ط ٣، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٢٧. القرضاوي، يوسف: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، (بيروت: دار الشروق، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٢٨. —: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، (الدار البيضاء: دار المعرفة).

٢٩. قطب، سيد: في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٩٩٠م).
٣٠. المؤمن، علي: الإسلام والتجديد رؤى الفكر الإسلامي المعاصر، (بيروت: دار الروضة، ط١، ٢٠٠٠م).
٣١. المخزومي، محمد: خاطرات جمال الدين الأفغاني، (بيروت: ط١، ١٩٣١م).
٣٢. المودودي، أبو الأعلى: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٥م).
٣٣. النبهان، فاروق: مقال على النت على موقع الشيخ عبد الهادي بدلة بعنوان: «العلاقة بين التفسير والتجديد في الفكر الإسلامي» انظر:
- <http://www.badleh.com/index.jsp?id=23&aid=15>
٣٤. هاشم، أحمد عمر: مقال على النت على موقع Islam On Line بعنوان: «الإمام محمد عبده مجدداً». انظر:
- http://www.islamonline.net/arabic/In_Depth/MohamadAbdo/Articles/05.shtml
٣٥. الهيتمي، علي بن أبي بكر: موارد الظمان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٣٦. النيفر، حميدة: مقال على النت على موقع الملتقى الفكري للإبداع بعنوان «محمد عبدة في ذكرى وفاته: تحديات الحاضر - أسئلة الماضي (المؤسسة والنص)». انظر:
- <http://www.almultaka.net/PrintNews.php?id=236&cat=19>

